بداية "الدولة القومية":

يؤرخ كثير من المؤرخين بداية ظهور الدولة القومية الحديثة ذي الحدود المعروفة المستقرة ب"صلح وستفاليا" وهو:

صلح وستفاليا (Peace of Westphalia) هو اسم عام يطلق على معاهدتي السلام اللتين دارت المفاوضات بشأنهما في مدينتي أسنابروك (Osnabrück)ومونستر (Münster) في وستفاليا وتم التوقيع عليهما في 15 مايو 1648 و24 أكتوبر 1648 وكتبتا باللغة الفرنسية.

وقد أنهت هذه المعاهدات حرب الأعوام الثلاثين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة (معظم الأراضي في ألمانيا اليوم)، وحرب الأعوام الثمانين بين إسبانيا وجمهورية الأراضي الواطئة السبع المتحدة.

ووقعها مندوبون عن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فرديناند الثالث (هابسبورغ)، ممالك فرنسا، إسبانيا والسويد، والجمهورية الهولندية والإمارات البروتستانتية التابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

يعتبر صلح وستفاليا أول اتفاق دبلوماسي في العصور الحديثة، وقد أرسى نظاما جديدا في أوروبا الوسطى مبنيا على مبدأ سيادة الدول.

الدولة العلمانية القومية الحديثة

أو إن شئت فقل الخبيثة، نشأت بعد "صلح وستفاليا" 1648 والتي تعني أن الولاء والانتماء والمرجعية فيها تابع للدولة والوطن والقطعة الجغرافية، ولا تقيم شأنا للمرجعية المتجاوزة والتي من المفترض أن تكون الإسلام في حال دولنا.

- **يقول د. أكرم حجازي:**

(والدولة القومية التي تشكل الوحدة السياسية المركزية للنظام الدولي القائم حاليا لأنها قامت على أنقاض « الدولة الدينية» = هي بالضرورة والنشأة "معادية" للدين بقطع النظر إنْ كان وضعيا أو سماويا، صحيحا أو محرفا).

(ومع نمو النزعة القومية لم يعد الناس يتعارفون فيما بينهم على خلفية الانتماء الديني، كأن يقال: هذا مسلم وذاك مسيحي أو يهودي أو مجوسي أو بوذي أو هندوسي.

وتبعا لذلك لا تقيم « الدولة القومية» أي وزن للدين في الحياة العامة، ولا تستعمله إلا كمعطى وظيفي في الحشد الاجتماعي لتحقيق أغراض سياسية أو اجتماعية.)

فالدولة المعاصرة معادية للإسلام وأحكامه بأصل البنية والنشأة، وكل الدول والحكومات وجيوشها التي تدعي الإسلامية تتحاكم إلى القوانين الوضعية، وتستحل ما حرم الله، وتحرم ما أحله، وترتكب من نواقض الإسلام ما يستعصي على الحصر، فقط مقل ومستكثر.

ثم تقوم الجيوش والشرط والدرك والأجهزة الأمنية بحماية هذه الأنظمة، وتجفيف منابع التدين من المجتمعات، بقوانين الإرهاب، والملاحقات الأمنية، وتكسير عظام وسحق كل من أراد -مجرد إرادة- إقامة دين الله. وعدد السجون والمعتقلات وعدد ساكنيها وقضايا المعتقلين خير دليل.

ثم إن هذه الجيوش وكلاء النظام العالمي في شفط الثروات وضخها في شرايين السادة الكبار، والإشراف على إفقار الشعوب الممنهج وتعبيدهم.

ويترتب على هذه الأصول الجاهلية من الآثار ما الله به عليم.

- يمكننا أن نجمل هذه الآثار **في ثلاثة أبواب كبيرة** يندرج تحتها آلاف المفردات:
  1. ضياع الدين عند أكثرية المسلمين، ذهاب الدنيا لدى الغالبية الساحقة، تسلط الأعداء وتحكمهم في كافة مناحي الحياة.
  2. فهذه الدول في حالة حرب دائمة مع الإسلام، بغض النظر عمن يعتلي عروشها.
  3. ودفع صائل هذه الأنظمة على الدين والنفس والعرض والمال هو الواجب والمتعين

- ذكر أبو مصعب في "الدعوة" أن أهل الإسلام كانوا "يتوحدون" دائما على ثلاث مرجعيات:
  1. **المرجعية السياسية:** حكومة أو حركة أو خليفة شرعي كالأمويين والعباسيين والمرابطين.
  2. **المرجعية الدينية:** أئمة المذاهب الأربعة، وأئمة الطرق الصوفية.
  3. **المرجعية المجتمعية** متمثلة في: القبائل والعشائر والعائلات والأسر الكبيرة.

فلما اصطدم الغرب بنا في سلاسل الحروب الصليبية الثانية (1798-1970) قام بتفكيك "المرجعيات الثلاث" واستبدالها بأخرى:

فحلت "الدولة القومية" محل **المرجعية السياسية**، وكانت وسيلة تفتيت ناجحة جدا، وصولا لمرحلة إلغاء الخلافة كليا.

وتم دمج **المؤسسات الدينية** والأوقاف وإخضاعها للدولة بعد "علمنتها"، وأصبحت المؤسسات الدينية أحذية للحكومات، سائرة في فلكها.

وتم تحديث (الحداثة بمعنى العلمنة) المجتمعات القبلية وتفكيك **المرجعية المجتمعية**، وحلت محلها الأحزاب العلمانية بشقيها الاشتراكي والليبرالي

ما معنى ابتلاع الدولة القومية الحديثة للمجتمع؟

ابتلاع الدولة القومية الحديثة للمجتمع معناه أنها حلت محل كل الوسائط المجتمعية، حتى تغولت وأصبحت تشكل مشاعر وأحاسيس المواطنين وطرق انفعالاتهم!

في عالمنا العربي، بعد أن تمت "مأسسة الدين" في هيئات رسمية خاضعة للحكومات، تأتمر بأمرها (كالأحذية)، قضي بالتدريج على كل تنظيم مجتمعي وسيط، يمكن أن يتدخل في تشكيل الأفكار، وبناء التصورات والمفاهيم.

ومن أمثلة ذلك:

من بعد انقلاب يوليو 1952، وجميع وسائل الإعلام المصرية تدندن على أن "الجيش" هو (رب المصريين) وإلههم المطاع، وحاميهم ورازقهم، وهرمت أجيال تلو أجيال على هذه المفاهيم، ولا يسمح لأي مؤثر مجتمعي آخر بمجرد التشويش على هذه التصورات، فضلا عن نقضها!

وكذلك من صور **"هيمنة" الدولة القومية (ماديًا):**

طريقة بناء المدن والبلدات، التي تكون "مداخلها" و"طرق" الوصول إليها محددة وتحت القبضة الأمنية، وسيطرة "المراكز الشرطية" عليها تبلغ الغاية، لضمان أكبر قدر ممكن من الخضوع والمركزية، والهيمنة المادية تتقاطع مع الهيمنة الفكرية التصورية وتتكامل معها.

خطورة القومية

تكمن خطورة القومية في أنها تعطي لصاحبها هوية بها يعرف نفسه ويتعرف عليه الآخر.

أن تقول كلمة "أنا مصري" في وقتنا الحاضر تعني أنك تضفي على نفسك هوية وثقافة معينة، ولا تعني في وجدانك أو وجدان من يسمعك أنها مجرد إخبار عن بلد المنشأ والإقامة.

مما يجعل من صفة مصري "ذاتًا" وما خالفها "آخر" مغاير، ويستتبع ذلك جملة من الولاء والبراء والعبادات والمعاملات التي ما كانت لتصرف إلا لله تترجم في صورة قوانين وثقافة جاهلية، كما كانت القبيلة تمثل الهوية لدى أفرادها؛ فيعقد على رايتها الولاء والبراء.

لذا فما حب الأوطان الآن مما يدخل تحت الحب الفطري لمكان المنشأ -المتسامح فيه-، لكنه غالبا ما يمثل أيدولوجيا مستقلة بذاتها مناقضة للإسلام.